المحاضرة العاشرة: التناص

1-مقدمة:

يعد مصطلح التناص من أكثر المصطلحات انتشارا في الدراسات النقدية، الغربية والعربية على حد السواء، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي الذي ظهر على يد جوليا كريستيفا، بين سنتي 1966، 1967، والذي حمل مفهوم التقاطع بين عدة نصوص في نص واحد، ومن ذلك الحين شهد المصطلح انتشارا واسعا، حيث أخذ معان عديدة، تختلف من ناقد لآخر، ومن اتجاه لآخر، كل حسب التصور والمرجعية المعرفية والفكرية المنطلقة منها، وسيتم التطرق على سبيل المثال لا الحصر لبعض من تعرضوا لهذا المصطلح، وقدموا له دلالات خاصة.

2- تطور المفهوم:

تعد الدراسة التى قدمها جيرار جنيت حول المتعاليات النصية ، من أهم الدراسات التي أسهمت في تطوير المفاهيم المتصلة بالعلاقات بين النصوص، حيث استبدل مصطلح (التناص) بـ(المتعاليات النصية)، ويعتبر سعيد يقطين هذا المفهوم أوسع دلالة من سابقه فيقول :" لقد استعمل جينيت هذا المفهوم ليحل محل "التناص" لأنه أجمع وأشمل ، وهو يتسع وفق تصوره لمختلف العلاقات النصية التي ليس "التناص" سوى واحد منها، وبذلك يغدو" التناص" مفهوما فرعيا، يشكل مع باقي المفاهيم التي أدخلها جينيت أنواعا وأشكالا من " المتعاليات النصية" "، وقد قام برصد هذه المتعاليات في خمسة أنواع هي: معمارية النص، التناص، المناص، الميتانص، والتعلق النصي، مبينا الارتباط الوثيق بين هذه الأنواع.

3–التلقي العربي لمفهوم التناص:

بالعودة إلى الدراسات العربية، نجد أن المصطلح تشعب بشكل ملفت للنظر، فتعددت التعريفات، وأحيانا الإبدالات المصطلحية التي وضعت له ؛ فعبد الملك مرتاض يشبهه بالأوكسجين الذي لا تقوم حياة بدونه، فيقول: "إن هذا التناص للنص الإبداعي كالأوكسجين الذي لا يشم ولا يرى،ومع ذلك لا أحد من العقلاء ينكر بأن كل الأمكنة تحتويه، وأن انعدامه يعني الاختناق"(2)، فالتناص موجود في كل النصوص الإبداعية سواء وعى ذلك المبدع أو لم يعه، ويعود بعد ذلك ليقدم بديلا آخر يسميه (التكاتب) ، يراه الأنسب باعتباره يخصص مجال الدراسة، لتشمل النصوص الأدبية فقط، فمفهوم التناص– حسب مرتاض – مفهوم شامل وعام :" فعلينا أن نتصور جريان مصطلح التناص في الكتابات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية واللاهوتية وسواها، مما يزيد في تنصيب مفهوم التناص، وخطورة تعميمه، وهما أمران يجعلانه غير لائق بأن يقوم مفهوما في مجال الإبداع الأدبي، وتأسيسا على هذا التصور، استحدثنا ما نطلق عليه (التكاتب) "، والذي يقصد به تأثر كاتب بكتابات غيره من الكتاب، بغض النظر عن الجنس والأصل. أما محمد مفتاح فقد خص المصطلح بكتابات عديدة، أبرزها مؤلفه " تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص" ، حيث يعرف التناص كالتالي :"أنه فسيفساء من نصوص أدمجت فيه بتقنيات مختلفة"، مشيرا بذلك إلى البعد الجمالي لهذا المكون ليأتي بعد فترة من اشتغاله على هذا المصطلح، ببديل هو (الحوار) :"إن مفهوم التناص في الوقت الحالي، أصبح فيه خلط ولم يعد إجرائيا، لذلك تلاحظون في كتاباتي الأخيرة، أني أستعمل مفهوم (الحوار) أي (حوار النص)" ؛ فالتناص حوار بين نص وآخر.

ويذهب السعيد بوطاجين إلى أبعد من ذلك، حيث يقول :"الحياة كلها تناص معقد ومركب" ، متجاوزا بذلك المجال الأدبي إلى ما هو أعم وأشمل.

وهناك صيغ أخرى، أخذها هذا المصطلح مع النقاد العرب، مثل (التقاطع النصي)، (التداخل النصي) (التناسخ التراكيبي) وغيرها).

4-التفاعل النصي عند سعيد يقطين:

أما سعيد يقطين فقد استعمل (التفاعل النصي) لأنه يعتبره أعم من التناص، وهو يفضله على المتعاليات النصية ((Transtextualité نظرا لدلالتها البعيدة، وفي ذلك يقول :"نؤثر استعمال (التفاعل النصي)لأنه أعم من التناص، ونفضله على (المتعاليات النصية) التي هي مقابل ((Transtextualité عند جنيت لدلالاتها الإيحائية البعيدة"(6)،وقد خصه بفصل كامل في كتابه " انفتاح النص الروائي" ، فبعد أن استعرض مختلف الآراء والتصورات التي قدمت حوله، خلص إلى تقديم رأيه الخاص حول هذا المفهوم، ذلك ما يتضح من خلال قوله :" بما أن النص ينتج ضمن بنية نصية سابقة، فهو يتعالق بها ، ويتفاعل معها تحويلا أو تضمينا أو خرقا، وبمختلف الأشكال التي تتم بها هذه التفاعلات"(7)، حيث يدرس التفاعل النصي من حيث :

-قسميه : المتمثلين في النص والتفاعل النصي.

-أنواعه: المتمثلة في : المناص، التناص، والميتانص.

-أشكاله: المتمثلة في : الذاتي والداخلي والخارجي.

-مستوييه: العام والخاص.

إضافة إلى الأنواع السابقة، يعالج يقطين في كتابه "الرواية والتراث السردي" مستوى آخر من مستويات التفاعل النصي، وهو ما سماه بـ"التعلق النصي"، حيث يقول: "إن هذا النوع يتميز عن غيره من أنواع التفاعل النصي، بسبب العلاقة التي تقوم بين نصين متكاملين، أولهما سابق (Hypotexte) والثاني لاحق (Hypertexte)، وإن النص اللاحق يكتب النص السابق بطريقة جديدة".حيث يحاول إبراز علاقة الرواية كنص جديد بالتراث كنص قديم، ومنه علاقة العربي بتراثه.

لقد عالج يقطين في الجزء النظري الذي وضعه لكتابه ما يسمى بالمتعاليات النصية، التي خصص لها جينيت كتابا بأكمله، قام من خلاله برصد مختلف أوجه التفاعل النصي، حيث أكد معنى التعلق النصي الذي يصل نصا لاحقا مثل إنياذة فرجيل بنص سابق كإلياذة هوميروس. وينقل يقطين نفس تحديدات جينيت للحديث عن ظاهرة التعلق النصي، التي يتم من خلالها تحويل نص سابق إلى نص لاحق بشكل كبير وبطريقة مباشرة، وذلك عن طريق المحاكاة الساخرة أو التحريف أو المعارضة.

وسيلجأ يقطين إلى دراسة هذه الأنواع الثلاثة وإبراز الفوارق بينها، وهو يرمي من وراء ذلك إلى إبراز الفارق بين التعلق النصي والتفاعل النصي، ليخلص إلى أن التفاعل النصي عام، من حيث كونه يعبر عن علاقة مطلقة بين النصوص في أجناسها وأنواعها وأنماطها المختلفة، أما التعلق النصي فهو خاص، باعتبار أنه يتجسد من خلال علاقات محددة تصل النصوص السابقة بالنصوص اللاحقة، وقد يحدث أن تشترك العديد من النصوص في نفس "المتعلَق به"، فتتعدد مواطن التعلق وتختلف وتتمايز باختلاف العصور والنصوص.

كما يشير يقطين إلى أشكال حضور النص "المتعلق به" في النص "المتعلق"، فقد يحضر من خلال اسمه أو أحد نعوته، على غرار "ليالي ألف ليلة" لنجيب محفوظ، حيث

التعلق بالاسم الأصلي "ألف ليلة"، كما قد يحضر من خلال باقي أنواع التفاعل النصي، من قبيل المناص والتناص والميتانص.

ويخلص يقطين من خلال تحليلاته، إلى أن النص المتعلق يسعى عن سبق إصرار وقصد، إلى محاكاة النص السابق والسير على خطاه، سواء صرح الكاتب بذلك أم لم يفعل، فإن ذلك سيتضح من خلال اعتماد النص المتعلق بنية نموذجية، تعبر عن الصيغة الأولى في نقاوتها، ويكون ذلك في أحوال الاقتباس والتضمين والاستشهاد، وفي هذه الحالة تتقلص سلطة النص المتعلق به، بحيث تسلب منه نمطيته التي يتشربها النص المتعلق، ويستوعبها مدمجا إياها في بنيته الخاصة على سبيل التناص، ويدخل في هذا الباب ما أسماه القدامى العكس والاجتذاب والمخترع.

5–خاتمة:

وانطلاقا من هذه التصورات، التي هي في مجملها ترجمة وتفسير لأفكار جيرار جينيت، يسعى يقطين إلى تقديم مقاربة للروايات الأربع المذكورة سابقا، باعتبارها نصا جديدا تأسَس على قاعدة استلهام النص القديم، حيث أعاد صياغته وتقديمه بناء على ما تستدعيه مقتضيات ومتطلبات الحاضر والمستقبل، وباتخاذه ظاهرة التعلق النصي موضوعا للبحث، فهو يرمي إلى معاينة إنتاجية الرواية من خلال تعلقها بالتراث، ودلالة هذه الإنتاجية وأبعادها ووظائفها.

6– مراجع مفيدة للمحاضرة: